كفرٌ.. وحَرب على الحقيقة

وقفتنا الآيتان الثامنة والتاسعة والسبعون من سورة المائدة على أن اليهود استحقوا الطرد من رحمة الله، بسبب عصيانهم وتجاوزهم حدود الله في علاقتهم به جلَّ شأنه، وبرسله عليهم الصلاة والسلام، وفي علاقتهم بالآخرين. وبدأ ذلك التجاوز جلياً على صعيد الفرد والجماعة، بتلك الظاهرة النكراء، ظاهرة عدم انتهائهم عن المنكر، وعدم نهي بعضهم بعضاً عنه؛ وقد اشتدَّت الكلمة القرآنية في ذمهم على ذلك بقوله تعالى: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وقد سبقت الإشارة إلى أن مما يدل على التكامل بين البنية الفكرية والبنية السلوكية عندهم: ما تلا الآيتين المومى إليهما، من الكشف عن أن كثيراً من اليهود كانوا يتولَّون الذين كفروا ـ يتخذونهم أولياء ونصراء من دون المؤمنين ـ كيما يكونوا عوناً لهم على مناهضة الحق وأهله من المسلمين، وكان ذلك سبيلَهم إلى سخط الله عليهم وخلودهم في العذاب الأليم؛ ذلكم قول الله جل ذكره: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة: ٨٠].

وها نحن أولاء نرى الكتاب الكريم يُخضع هذه القضية للباعث الحقيقي الذي كان وراء تلك الموالاة الظالمة، موالاة اليهود للذين كفروا؛ فكُفْرُ اليهود بالله وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وبما أنزل إليه كل أولئك

كان وراء ذلك المسلك الذي لا يتسق مع الإيمان الصادق ودعوى الاستمساك بالدين، ولكنه الخروج على الحق، وعلى ما توجبه رسالة السماء: من طاعة الله ورسوله، والالتزام بوحي الله وتنزيله؛ ذلكم ما نطق به قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٨١]. أجل لو كان هؤلاء الذين يتولون الذين كفروا من بني إسرائيل، يؤمنون بالله والنبي ـ يصدقون الله ويقرون بربوبيته ويوحدونه، ويصدقون نبيه محمداً ﷺ بأنه ﷺ نبيٌ مبعوث، ورسول مرسل، ويقرون بما أنزل إلى محمد ﷺ من عند الله من آي الكتاب العزيز ـ ما اتخذوهم أولياء، ما اتخذوهم أصحاباً وأنصاراً يوالونهم ويستنصرون بهم دون المؤمنين. وما داموا قد فعلوا ذلك فمردُّ القضية إلى الجنوح الضال، والخروج عن طريق الهداية والنور. دلَّ على ذلك قول الله تعالى في ختام الآية ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إذ بين جل شأنه أن كثيراً منهم أهلُ خروج عن طاعة الله إلى معصيته، وأهلُ استحلالٍ لما حرم الله عليهم، من القول والعمل والسلوك.

وهكذا يستريح أهل الإيمان لهذا التعليل، وتتعاظم عندهم القدرة على ربط النتائج بمقدماتها، والأعمال ببواعثها والأفكار التي تسيِّرها... ولا يحتاجون كل يوم إلى جديد في تبيُّن العلة التي تكمن وراء تصرفات اليهود على هذه الساحة، ساحةِ الموالاة للكافرين والمعاداة للمؤمنين. فلو كان هؤلاء المتحدث عنهم آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن ـ كما أسلفنا ـ لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن، ومعاداة

أهل الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه من ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، لما أنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

والواقع أن القرآن الكريم، قد كشف في بعض من آيه عن أن ما تنطوي عليه نفوس أولئك المغضوب عليهم ـ مع دعاواهم العريضة على ساحة الانتماء إلى الدين – هو إيمان بالجبت والطاغوت؛ حملهم – وهم الحاسدون الحاقدون ـ على أن يشهدوا للمشركين عباد الأوثان بأنهم أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدَّقوا بما أنزل الله عليه وحياً من عنده سبحانه.

ولم يكن أمراً عجباً: أن يعلن القرآن في دنيا الإنسان: أن أولئك الذين تمرغوا في أوحال هذه المقولة الظالمة، قد حقَّت عليهم لعنة الله، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً. ونقرأ في ذلك وفيما يتعلق به، ويجلِّيه قول الله جل ذكره ـ بدءاً من الآية الحادية والخمسين في سورة النساء ـ خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥١ – ٥٥].

أرأيت إلى هذا السمو في أسلوب الخطاب، واستثارة القلب والعقل للقضية المراد بيانها والكشفُ عن أبعادها! يخاطب ربنا تبارك وتعالى في

الآية الأولى نبيه محمداً ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه ـ كما يقول شيخ المفسرين ـ ألم تر بقلبك يا محمد إلى الذين أُعطوا حظاً من كتاب الله فعلموه، يؤمنون بالجبت والطاغوت ـ يعني يصدقون بهما ويكفرون بالله، وهم يعلمون أن الإيمان بهما كفر والتصديق بهما شرك ـ !! إنه الكفر الذي لا يقوم على عدم العلم بأن ما يفعلونه شرك وضلال، ولكن العكس هو الصحيح؛ فهم يعلمون العوج ويعلنون إيمانهم به، وذلك أشد وأعتى ألوان الانحراف ـ والعياذ بالله ـ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾. لقد ضموا إلى ذلك الضلال: أنهم يعبثون بالحقيقة، فيقرُّون أن عبدة الأوثان أهدى من الذين آمنوا سبيلاً.

ولنا عودة إلى الآيات الكريمات نبين في ضوئها بعضاً من تصرفات اليهود وبواعثها في قضية هي من أخطر القضايا على صعيد علاقتهم بالمسلمين؛ لما أن موقفهم يجمع بين الكفر الذي يستبطنونه ـ مع دعوى الإيمان ـ وبين قيلهم: إن عبدة الأوثان أهدى من الذين آمنوا سبيلاً.. ولا تسل عن الآثار التي ترتبت على هذا الموقف عند المشركين ـ وهم يطمئنون إلى ما تقول يهود ـ بوصف هؤلاء الأناسي أهل كتاب!! وسعة في الثقافة والمعرفة بالشؤون التي تتصل بالسماء ـ كما يزعمون، ويصدق مزاعمهم الجاهليون الفارغون!!

الإيمان بالجبت والطاغوت..
واقتران الافتراء بالباعث

سبق أن ألمحتُ إلى أن القرآن الكريم، كشف عن العلة التي تكمُن وراء بعضٍ من تصرفات اليهود، في عدوانهم على الحق، وزعمهم أن الكافرين الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى ويعبدون الأوثان: أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بالله حق الإيمان، وصدقوا برسوله عليه الصلاة والسلام، وبما أنزل عليه من آي الفرقان. فالعلة: هي أن هؤلاء الذين أوتوا حظاً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت.. ومن هنا كان هيِّناً عليهم أن يخرجوا عن دائرة الهداية، ويعلنوا ما هو ضلال مبين، فيزعموا أن الكافرين هم أهل الاستقامة الذين يسلكون سبيلها، وأن أهل الإيمان ليسوا على هذا المستوى.

والذين نعنيه ماجاء في آيات كريمات من سورة النساء بدءاً من الآية الحادية والخمسين حيث يقول الله جل ذكره خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام في تجلية لتلك القضية ومتعلقاتها وما ترتب عليها من استحقاق لعنة الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ

﴿آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥١ – ٥٥].

والذين أوتوا نصيباً من الكتاب: هم اليهود أما عن الجبت والطاغون اللذين كانوا يؤمنون بهما: فالجبت ـ كما قال علماؤنا ـ يطلق على الصنم والكاهن، والساحر، والسحر، وعلى الذي لا خير فيه، وعلى كل ما عُبِدَ من دون الله تعالى. وللسلف وأهل التأويل عدد من التعريفات للطاغوت؛ فنحن نجد في مادة «طغى» من معاجم اللغة: الطاغوت: اللات والعزى، والكاهن، والشيطان، وكل رأس ضلال، والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ومَرَدَةُ أهل الكتاب. أو: الجبت: حُيَيّ بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشرف، وهما من زعماء يهود وسدنة الضلال فيهم. وقد روى أبو جعفر الطبري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الجبت: الأصنام، والطاغوت: الذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس، وهؤلاء الذين يكونون بين يدي الأصنام: هم تراجمتها من الكهان، تنطق على ألسنة الأصنام؛ كأنها تقول للناس بلسانهم، ما قالته تلك بألسنتها. وروي عن عكرمة أنه قال: الجبت والطاغوت صنمان. روى عن مجاهد والشعبي أن الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، كما روى عن مجاهد: الجبت: السحر. والطاغوت: الشيطان والكاهن. ونقع على رواية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول فيها: الجبت: حيي بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشرف، وروي مثل ذلك عن الضحاك.

ومهما يكن من أمر: فالذي تعطيه الروايات وأبعادها العميقة: أن الجبت والطاغوت يطلقان ويراد بهما: كل معظَّم بعبادة من دون الله، أو طاعة أو خضوع له، كائناً ما كان ذلك المعظم؛ فقد يكون حجراً، أو ما يقوم مقامه فيما يتخذ من الأوثان، أو إنساناً أو شيطاناً؛ والطغيان قائم في الطرفين؛ المعظم بعبادة أو طاعة أو خضوع، والمعظم كذلك سواء كان حجراً أو ما يسد مسدَّه من الأوثان، أو إنساناً يُعبد ويطاع من دون الله، أو يحمل الناس طغياناً وبغياً وظلماً على أن يطيعوه في معصية الله، ومجاهرة شرعه ودينه بالعداوة. وإذا كان الأمر كذلك، وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها ـ معظَّمةً بالعبادة من دون الله ـ فقد كانت ـ كما قال شيخ المفسرين ـ جبوتاً وطواغيت؛ وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله؛ وكذلك الساحر والكاهن اللذان كان مقبولاً منهما ما قالا في أهل الشرك بالله، وكذلك حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، لأنهما كانا مطاعين في أهل ملتهما من اليهود في معصية الله والكفر به وبرسوله، فكانا جِبتين وطاغوتين.

والذي ينبغي أن نكون على ذُكْرٍ منه: أن أولئك اليهود الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، كانوا يؤمنون بالجبت والطاغوت ـ على تعدد الأنواع والمسمَّيات لهما ـ ويكفرون بالله الخالق القادر العليم الحكيم، وهم على علم من كتابهم قبل أن يعبثوا بنصوصه ويحرفوه، أن الإيمان بهما ـ أعني الجبت والطاغوت ـ كفرٌ وخروجٌ عن طريق الهداية، والتصديقَ بهما شركٌ يؤدي بصاحبه إلى جهنم وبئس المصير.

إنها الجراءة الظالمة على الحق، والشناعة في قلة الأدب مع الله، ناهيك عن الاستهانة بالعلم والمعرفة؛ فأيُّ قيمة في ميزان القيم، لمن يعلم حق العلم: أن الإيمان بالجبت والطاغوت كفر، والتصديق بهما شرك، ثم يُقْدِم عليه بعمد وإصرار؟!! وإذا انضم إلى ذلك ما عند اليهود من حقدٍ على المسلمين تغلي به صدورهم، وحسدٍ يملأ نفوسهم ويطبع تصرفاتهم.. لم يكن بدعاً أن يظاهروا الباطل ـ وهم يعلمون أنه باطل ـ على الحق ـ وهم يعلمون أنه حق ـ فيقولوا لعبدة اللات والعزى المتَّخذين أنداداً من دون الله، المصدقين بالكاهن وهذيانه بأنه يعلم الغيب ويملك النفع والضر أن يقولوا لهم: أنتم على طريق الهدى، وأتباع محمد على طريق الضلال. كبُرَت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

هكذا كان الاقتران بين المقولة الضالَّة والباعث عليها كما دَّل على ذلك قول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً**﴾. والحمد لله رب العالمين.

الغطرسة الثقافية.. والافتراء على الحق

يوم تكون دعوى الإيمان بالله في جانب، والسلوك على ساحة الفكر والعمل في جانب، ويكون بينهما تنافر ما بين النقيض والنقيض.. هنالك حدِّث ولا حرج، عما يترتب على ذلك من آثار مناهضة لكل ما هو حق، ولكل ما هو فضيلة... كان ذلك شأن اليهود في واحدة من السمات المميزة لهم كما كشف عنها القرآن الكريم؛ فهم يدَّعون أنهم أتباع موسى عليه السلام، وأهل كتاب سماوي هو التوراة، يؤمنون به ويقفون عند حدوده فيما يأمر وفيما ينهى... وبعد ذلك كله يأتون بما يكذِّب ما يدَّعون.. فتراهم يؤمنون بالجبت والطاغوت.. وأكثر من هذا لا يستحيون أن يجعلوا من أنفسهم مرجعاً للحكم بين الكفار عبدة الأوثان، وبين أهل الإيمان الصادقين، أتباع محمد عليه الصلاة والسلام.. فيقولوا للذين كفروا: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

ولقد كان من الممكن أن ينطلي مكر اليهود وزورهم على بعض الناس!! ولكن الفرقان الحكيم، لم يدع ريبة لمستريب ولا لذي لب ينشد الحقيقة ويبغي مقنعاً: أن أولئك المغضوب عليهم يحاربون الحق، وهم يعلمون أنه حق، ويظاهرون الكفرة على المؤمنين، وهم على يقين في قرارة أنفسهم، أن من يتخذونهم أولياء وأنصاراً من دون المؤمنين، بل ويشدُّون من أزرهم: ضالُّون كافرون. ولكن لا بدع في صدور ذلك ـ بل وما هو

أشد وأنكى ـ عنهم، ما دام الإيمان بالجبت والطاغوت قائماً.. أضف إلى ذلك ما يعتلج في صدورهم من المكر والحقد على المسلمين.

ولعل من الخير أن نتابع الرحلة مع الآيات الكريمات التي قدَّمت للناس بعامة ـ وللمسلمين بخاصة ـ تلك الحقيقة المشار إليها، كيما نتبيَّنَ جوانب أُخَر من هداية الكتاب الكريم بشأن هؤلاء الأناسي، وهو يكشف عن واحدة من سماتهم على صعيد الفكر والسلوك، ونتلَّمس العبرة التي على المسلمين أن يستخلصوها من خلال ذلك؛ كيما يتجاوزوا واقعاً لا يغْبَطون عليه، إلى واقع ينشئه الدين الخالص، والعمل الجاد، بمنهجه الرباني الشامل على كل صعيد. والآيات التي نعني هي ما جاء في سورة النساء بدءاً من الآية الحادية والخمسين من قول الله تبارك وتعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾**﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٥].

ولقد وقفتنا الكلمات الهاديات في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ الآية... على الأمرين اللذين أشرنا إليهما في صدر هذا الحديث:

أولهما ـ أن الذين أوتوا نصيباً من الكتاب السماوي ـ وهم اليهود هنا

ـ يؤمنون بالجبت والطاغوت، وقد أسلفت الكلام على المراد من كل من الجبت والطاغوت اللذين يؤمنون بهما، وأنهما يشملان كل ما يعبد من دون الله أو يطاع فيما هو عدوان على الدين الحق.

الثاني ـ أنهم لم يقفوا عند هذا الحد، بل خولوا أنفسهم ـ مع هذا الضلال المبين ـ أن يُصدِروا ـ في غطرسة ثقافية عابثة ـ حكمهم على المؤمنين بأنهم ليسوا أهل الهداية، وأن الكافرين عبدةَ الأوثان الذين يتخذون أنداداً من دون الله، هم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. لقد كان منهم ذلك: حين سألهم زعماء الشرك عن هذه القضية الكبرى وهي أيُّ الدينين خير، دينهم أم دين محمد عليه الصلاة والسلام؟ فكان جوابهم: بل دينُكم خير من دينه. وقد حملت إلينا المصادر عدداً من النصوص التي كشفت عن هذه المقولة الظالمة، والكذبة التي لا يمكن أن تصدر إلا عن اليهود، أو ممن هم على شاكلة اليهود.

من ذلك ما روى محمد بن إسحاق المطلبي ـ وهو يتحدث عن غزوة الخندق ـ غزوة الأحزاب ـ التي وقعت في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة ـ بسنده أن نفراً من اليهود ـ منهم سلاَّم بن أبي الحقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي ـ في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزَّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه، حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهلُ الكتاب الأول، والعلمِ بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولىٰ بالحق منه؛ فهم

الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

وقد جاء في الرواية تفسير الفضل بالنبوة.

أرأيت!! بل دينكم خير من دينه؛ قالوها وهم الذين يعلمون حق العلم، أن التوراة عندهم نصَّت على نبوته عليه الصلاة والسلام، وأنه خاتم الرسل الذي يجب أن يُتَّبع..

ألا ليت للمسلمين تلك البصائر التي تعي حق الوعي دلالة هذه الواقعة وأمثالها على العبث الفكري عند اليهود، وكيف أنهم يسطون بالحقيقة، ويفترون الكذب على الله وعلى الناس، في سبيل الوصول إلى أغراضهم الهابطة، وتحقيق مآربهم المتجافية عن هدى الله وإنسانية الإنسان.

إنهم إن وُفِّقوا لذلك، واتتْهم القدرة على حسن التعامل مع الواقع، ولم يكونوا ـ والمأساة تغمر الأمة بظلامها ـ كالذي يضرب في حديد بارد، أو يكتب على الماء، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

يجحدون الحق بإصرار.. وهم يعلمون

كانت مقولة ظالمة عابثة تلك التي أطلقها بعض من زعماء اليهود في عصر النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهم في موضع الصدارة من قومهم في الدين والسياسة وتصريف الأمور ـ إذ قالوا لزعماء الكفر وسدنة الضلال من أهل الشرك: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾. جاء الخبر عن ذلك في القرآن الكريم وأكدّه ما روى ابن إسحاق المطلبي صاحب «السيرة» وغيره في ذلك كما سبق. والمعنى: هؤلاء: أي هؤلاء الذين وصفهم الله بالكفر في قوله: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أهدى: أي أقوم وأعدل من الذين آمنوا؛ من الذين صدّقوا الله ورسوله وأقروا بما جاء به نبيهم محمد ﷺ وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴿سَبِيلاً﴾ يعني طريقاً ومنهجاً.

إن هؤلاء اليهود الذي عناهم الله جل شأنه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ اتخذوا هذا الموقف الجاحد للحق، ونطقوا بتلك المقولة الظالمة العابثة، وهم على علم بأن ما زعموه هو الباطل، وأن ما عليه أتباع محمد عليه الصلاة والسلام هو الحق، وأنهم مأمورون في كتابهم الذي يزعمون أنهم به مؤمنون، أن يصدقوا بما أرسل به هذا النبي الكريم.

لقد جحدوا ما عندهم من العلم، وكفروا بالحقيقة الناصعة التي أيدتها الحجة وقام عليها الدليل، فقالوا: إن أهل الكفر بالله وبما جاء من عند الله، أولى بالحق من أهل الإيمان به وبما أوحيَ إلى مصطفاه، وأن دين

أهل التكذيب لله ولرسوله، أعدل وأصوب من دين أهل التصديق لله ولرسوله.

على أية حال: لم يكن عجباً من العجب ـ وهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، وتغلي صدورهم بالحقد الأسود على المسلمين ـ أن يجيء ذلك على لسان بعض من زعمائهم المسلّم لهم من الأتباع ـ كما أسلفنا ـ بصواب الكلمة وصدق الحديث. وصدق ربنا جل جلاله إذ يقول: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦] وقد أوردنا من قبل رواية أبي بكر محمد بن إسحاق صاحب السيرة والتي جاءت بمناسبة قيام اليهود بتحزيب الأحزاب من المشركين على رسول الله ﷺ بين يدي غزوة الخندق؛ ومما جاء في تلك الرواية: «فقالت قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الآيات. فلما قالوا ذلك لقريش، سرّهم، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه.

وقد جاء في بعض روايات الإمام الطبري إفرادُ كعب بن الأشرف ـ عليه وعلى أمثاله لعائن الله ـ بتلك الفرية الضالة، وجنوحُ المشركين إلى كلمات نابية بشأن محمد عليه الصلاة والسلام، وتفاخرٍ بما هم عليه؛ قال ـ رحمه الله ـ: حدثنا محمد بن المثنى قال: حدثنا ابن أبي عدي عن

داود عن عكرمة عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش: أنت حَبر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصُّنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية؟ قال: أنتم خير منه. قال: «فأنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ٣] وأنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ...﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾. وجاء في بعض الروايات تسويد قريش لكعب بن الأشرف خلال الحديث معه؛ ذلك ما جاء عن عكرمة أنه قال: قدم كعب بن الأشرف معه فقال له المشركون: احكم بيننا وبين هذا الصُّنبور الأبتر، فأنت سيدنا وسيد قومك: فقال كعب: أنتم والله خير منه؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ...﴾ إلى آخر الآية.

والحوار الذي نرى بين قريش وبين الزعيم اليهودي كعب: واضح أنه لا يحمل أثارة من علم، أو خضوعٍ للمنهج السليم في إقامة الدليل؛ فالمذمة للنبي عليه أفضل الصلاة والتسليم بتلكما اللفظتين النابيتين «الصنبور والأبتر» والمفاخرة بأن قريشاً أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية.. ما شأنها وما علاقتها بما هو حق وما هو باطل.. حيث يدعوهم محمد ﷺ إلى الدين الحق الذي أوحى الله به إليه بواسطة جبريل عليه السلام، وهو الأمين الذي لم يعهدوا عليه إلا الصدق، والاستقامة، ونظافة السلوك!!

والصنبور ـ كما قال أهل اللغة ـ سعفات تنبت في جذع النخلة غير مستأرضة أي ليس لها عرق في الأرض، ثم قالوا للرجل الفرد الضعيف

الذليل الذي لا أهل له ولا عقب ولا ناصر: «صنبور» فأراد هؤلاء الكفار من قريش ـ تأييداً لموقفهم الجاحد ـ أن محمداً ﷺ ـ بأبي هو وأمي ـ صنبور منبتٌّ في جذع نخلة فإذا قلع انقطع، فكذلك هو إذا مات، فلا عقب له لأنه المنبتر أو الأبتر الذي لا عَقِبَ له.

وكذبوا وخيَّب الله فألهم، فقد نصر الله رسوله النصر المبين، وقطع دابر الكافرين، وعلت كلمة الحق الذي جاء بها في العالمين. وللحديث صلة نصطحب فيها – إن شاء الله – روايات أخر في سبب نزول تلكم الآيات التي كشف عن مجافاة اليهود للحق، ومناصرتهم للباطل وأهله، وشهادتهم شهادة الزور التي أعلنوها بقولهم لأهل الشرك عبدة الأوثان: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ فلذلك ما له من الدلالة النفسية وطبيعة المنطلقات التي ينطلقون منها في الأحكام!! وكم ذا يفيد ـ إذا وعت الأمة أبعاده ـ في تحديد المواقف، وتحليل الأحداث على أرض الواقع الذي لا نغبط عليه، لأنه واقع أسهم في صنعه نوع من الجهل ومثله ـ أو أنكى منه ـ من التجاهل للخبر الصادق في القرآن، أو في سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام وسيرته، وأحياناً فيهما ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الجاهلية.. ونفثات يهود

وقفتنا الكلمة القرآنية وأخبار السيرة من قريب على قضيتين يهوديتين كل منهما غاية السوء في بابها:

الأولى ـ أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، وهما اسمان لكل معظَّم بعبادةٍ من دون الله أو طاعة أو خضوع له، كائناً ما كان ذلك المعظَّم.

الثانية ـ أنهم ـ وقد أوتوا حظاً من الكتاب السماوي وعرفوا أن محمداً ﷺ رسول من عند الله ـ يقولون لعبدة الأوثان المشركين بالله: هؤلاء أهدى سبيلاً وأقوم مسلكاً، من المؤمنين الصادقين، أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، المصدقين برسالته.

وقد حملت إلينا المصادر روايات في سبب النزول ـ أتينا على ذكر بعضها ونحن نحاول تقديم الوقائع ـ وهي روايات تكشف عما دار من الحوار بين عدد من زعماء يهود ـ أو كعب بن الأشرف بخاصة ـ وبين مشركي مكة حول المقارنة بين المؤمنين المصدقين برسالة محمد ﷺ، وبين الكافرين بها عبدةِ الأصنام المتخذين أنداداً من دون الله، وكيف أن كعب بن الأشرف ـ أو هو ومن كان معه من زعماء المغضوب عليهم ـ قال لكفار قريش: أنتم خير وأهدى سبيلاً من محمد عليه الصلاة والسلام، فنزلت الآيات في ذلك.

والقراءة المتبصرة لما ورد من الروايات في ذلك: تهدي إلى أن الجاهلية

العمياء، قد حالت دون المشركين في مكة، ودون الوعي الصحيح لما يَدْعوهم إليه رسول من أنفسهم من رسالة الإسلام؛ إنهم يتساءلون!! كيف يكون محمد ـ وهو الذي لا عقب له ـ خيراً منهم ـ وهم أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية وقرى الضَّيف ـ.. إن ذلك لا يمكن أن يكون..

ولئن كان موقف هؤلاء الجاهلين، يحمل من العدوان على الحق والمعرفة ما يحمل؛ لأنك لا ترى فيه ـ وهم مصرون على شركهم ـ أثارة من دليل يشهد لخيريتهم التي زعموها على محمد عليه الصلاة والسلام... إن موقف اليهود كان أشد شناعةً وأعظم جرماً ـ لما أنهم يقفون هذا الموقف المنكر، مع أنهم قد أوتوا حظاً من الكتاب، وعرفوا من التوراة حقيقة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا؛ فهو رسول الله وخاتم النبيين. واليهودُ ـ كغيرهم ـ مأمورون باتباعه والتصديق بما جاء به من عند الله. ولا يُعْوِزك أن ترىٰ تفسيراً لموقفهم الذي يظاهرون فيه الضلال وأهله؛ فهم معادون لمحمد عليه الصلاة والسلام، حاسدون له ولمن بعث فيهم، حاقدون على أهل الإيمان، لما أن الله تفضل عليهم فابتعثه فيهم، ولم يبتعث الرسول من يهود. مستاؤون من تحويلهم عن سلطانهم الاقتصادي الربوي فكان أن تفاقم الأمر، وخانوا العهود والمواثيق، ومكروا برسول الله عليه الصلاة والسلام، حتى اشتعلت نار الحرب بينهم وبين المسلمين.. هذا مع وجود الوثيقة التي نظّمت العلاقات بينهم وبين المسلمين وغيرهم، وحفظت لهم حقوقهم كاملة غير منقوصة، حتى أشركتهم في الدفاع عن المدينة لو وقع عليها عدوان من الخارج؛ وهذا غاية في التكريم،

ولكن اليهودي هو اليهودي؛ ويأبى الله إلا أن تكشف الوقائع عن مخبوء ما تنطوي عليه النفوس!!

وفي حقبة من هذه الحقب المثقلة بالحوادث، ذهب كعب بن الأشرف وحده، أو هو ونفرمن سدنة الضلال معه إلى مكة، ليستنفروا قريشاً وليحزبوا الأحزاب ضد رسول الله ﷺ والمسلمين، وكان أن حصل الحوار الذي أومأنا إليه، وأصدر الفكر اليهودي الحاقد حكمه القائم على الزور والبهتان وتجاوز كل ما هو حجة وسلطان.. فقال أولئك الضّلال للمشركين: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ بل سجد الحبر اليهودي لصنمين عند قريش وآمن بهما.

روى الإمام الطبري بسنده عن عكرمة: أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش، فاستجاشهم على النبي ﷺ، وأمرهم أن يغزوه، وقال: إنا معكم نقاتله، فقالوا: إنكم أهل كتاب، وهو صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم!! فإن أردت أن نخرج معك: فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما. ففعل. ثم قالوا: نحن أهدى أم محمد؟ فنحن ننحر الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونصل الرحم، ونقري الضيف، ونطوف بهذا البيت، ومحمد قطع رحمه، وخرج من بلده!! قال: بل أنتم خير وأهدى! فنزلت فيه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾.

فاستجاشهم على النبي ﷺ: أي طلب منهم أن يُجَيِّشوا جيشاً لمحاربته.

وقولهم: فنحن ننحر الكَوْماء: الكوماء هي الناقة الضخمة السَّنام عاليته وهذه خير النوق وأسمنها وأعزها عليهم. وجمع كوماء: كُوم.

هكذا كشفت هذه الرواية عن أن الدين عند هذا الزعيم والحبر اليهودي: لعقة على اللسان يبتغي من ورائها التعالي وحيازة الدنيا، فعندما طلب إليه المشركون أن يسجد للصنمين: سجد أوأعلن إيمانه بهما، وصدق فيه قول الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ وكان ذلك سبيله إلى القولة الآثمة التي سَداها ولُحمتها مظاهرةُ الباطل والعدوان على الحق الصُّراح. والغاية من وراء ذلك، تأليبُ من يستطيع من الكفار على محمد عليه الصلاة والسلام، واستثارةُ كفار قريش استثارةً تحملهم على أن يجيشوا جيشاً تقف معه الأحزاب الأخرى في مواجهة دعوة الحق...

وكان ذلك بعد غزوة بني النضير التي انتهت بأن أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة إلى خيبر، وكانوا هم البادئين بالأذى والنكث بالعهد، حيث أشعلوا نار الفتنة والاعتداء وحصل ما حصل ـ كما سيأتي تفصيل ذلك ـ إن شاء الله ـ ولله الحمد والمنة.

وبعد: أفلا يرىٰ أهل البصيرة ـ معنا ـ أن ما يفعله اليهود اليوم من سلوك السبل الضالة كلها ـ ومنها التزوير الفكري والافتراء على الحقائق ـ ذو نسب أصيل إلى ما كان أجدادهم يفعلون بالأمس ولكن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]... والحمد لله رب العالمين.

مكر يهود.. وتعدد ميادين الصراع

لا يرتاب منصف في أن من الضرورة بمكان: أن تقرأ الأمة بعامة ـ والواعون من أبنائها ـ بخاصة ـ وقائعنا مع يهود، بكثير من العناية وحسن الاستقراء للثوابت، وربط الجزئيات بالكليات والنتائج بالمقدمات. والعهد قريب بمجموعة من الروايات التي تكشف عن حكمهم على المسلك العقدي للجاهليين المشركين، والمؤمنين المصدقين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام حيث قالوا للمشركين: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ وسجد حبرهم للصنمين. ويتضح من خلال هذا: مناقضة ما هو موجود في كتابهم، وموافقة صنيع آبائهم الذين كفروا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

وهكذا تفيد واقعة الشهادة للمشركين بالهدى، وللمؤمنين بالضلال، أن حكم اليهود بأن عبدة الأوثان من مشركي قريش خير من الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسوله ﷺ، إنما كان سيراً مع الهوىٰ، ورغبة في حشد الحشود الظالمة الآثمة لحرب محمد عليه الصلاة والسلام. وقد تجاوزوا من أجل ذلك كل ما يمُتُّ إلى الإيمان وإلى الحق والصدق بصلة؛ فكعب بن الأشرف ـ وهو من هو بمعرفته بالتوراة ويقينه بما نصّت عليه من نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وأوصافه المميِّزة، غلبه الحقد الدفين، فلم يُبال بأن يجعل عَبدة الأصنام المصدقين بِمَخْرَقات الكهنة وما يقذفونه في وجوه الناس من خرافات... لم يبال في أن يجعل هولاء خيراً من الذين

شرح الله صدورهم للإيمان، وصدقوا في العبودية لربهم، فخلعوا الأنداد والأمثال، واتبعوا مخلصين رسوله عليه الصلاة والسلام.

وقبل هذا: رضي الطاغوت كعب لنفسه ـ وهو ينتسب إلى دين سماوي ـ أن يسجد لصنمين ويعلن إيمانه بهما، كيما يبرهن لكفار قريش أنه عدو لمحمد ﷺ على الحقيقة، وأنه لا يمكر بهم، بل هو قريب منهم قُرْبَ اشتراكه معهم في السجود إلى ذينك الصنمين، وإيمانه بهما والعياذ بالله. وهذا ما أفصح عنه عكرمة رحمه الله ـ كما ذكرت آنفاً ـ فيما روى الطبري عنه أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش، فاستجاشهم على النبي ﷺ، وأمرهم أن يغزوه، وقال: إنا معكم نقاتله، فقالوا: إنكم أهل كتاب، وهو صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما، ففعل.

وأنت ترى في هذه الواقعة، أن كفار قريش كانوا في الأصل ـ ينظرون نظرة امتهان إلى اليهود، ولكنهم في الوقت نفسه يقعون فريسة غطرسة اليهود عليهم بكونهم ـ من ناحية الفكر والثقافة لما أنهم أهل كتاب ـ أكثر دراية منهم وأعلمَ. وبعد أن سجد كعب للصنمين وآمن بهما، طلبوا منه إعطاء حكمه فيهم وفي المسلمين؛ أي الفريقين أقوم مسلكاً وأهدىٰ سبيلاً. جاء في الرواية المشار إليها: ثم قالوا: نحن أهدى أم محمد؟ فنحن ننحر الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونصل الرحم، ونقري الضيف، ونطوف بهذا البيت، ومحمد قطع رحمه وخرج من

بلده.. فما كان من كعب، وهو يعلم أن قريشاً هي التي أخرجت النبي ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة.. فهو لم يقطع رحمه ولا جفا السلوك المستقيم، ولكن الآخرين هم الذين دأبوا على إيذائه ومحاولة فتن من يؤمن به عن دينه.. أجل ما كان من كعب ـ وهو يعلم ذلك كله وأكثر منه ـ إلا أن قال: بل أنتم خير وأهدى فنزلت فيه ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا** ﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة أيضاً أنه قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العاني، ونسقي الحجيج، ومحمد صُنبورٌ قطع أرحامنا، واتبعه سُرَّاق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدىٰ سبيلاً فأنزل الله ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا** ﴾ الآية. وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وجماعة من السلف.. قال الإمام أحمد – رحمه الله – : حدثنا محمد بن أبي عدي عن داود عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش: ألا ترىٰ هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السِّدانة، وأهل السِّقاية، قال: أنتم خير قال: فنزلت فيهم: ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾ ونزل ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ**

لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾.

ومن الخير أن نشير إلى أن اليهود ـ كما يبدو ـ كانوا يتصرفون على أنهم في معركة متعددة الميادين، وكانوا يحاولون أن يديروا المعركة تلك، بكل ما أوتوا من خبث، ومكر، وبهتان، واستهتار بالقيم ـ مهما كان شأنها وصلتها بدينهم وكتابهم قبل التحريف ـ. فتراهم في سبيل تحزيب الأحزاب، لم يكتفوا ـ كما دلت بعض الروايات التي رأينا ـ بإغراء المشركين وإيهامهم أنهم خير من محمد عليه الصلاة والسلام، بل هنالك ما يدل على أنهم نسبوا الضلال إليه ـ أخزاهم الله ـ صراحة من ناحية الاعتقاد، وهوّنوا من شأنه ـ في لون من المعالجة النفسية للمشركين ـ كيما يقدموا على الحرب وهم واثقون.

قال ابن جريج: قدم كعب بن الأشرف فجاءته قريش فسألته عن محمد، فصغَّر أمره، ويسَّره وأخبرهم أنه ضال. قال: ثم قالوا له ننشدك الله، نحن أهدى أم هو؟ فإنك قد علمت أنا ننحر الكوم، ونسقي الحجيج، ونعمر البيت، ونطعم ما هبّت الريح قال: أنتم أهدىٰ.

وبعد: فليس عبثاً ـ بل خيراً على خير ـ: أن يقدم القرآن للأمة ـ بل للإنسانية كلها ـ تلك الحقائق بشأن يهود، وأن يستودع الثقات تلكم الروايات ـ المفصّلة لإجمال القرآن، والمبينة لأسباب النزول ـ بطون الكتب من مصادر التفسير والسنة والسيرة والتاريخ... وإذا كان الأمر كذلك: فمن الواجب الحتم أداءُ الأمانة في تجديد قراءة ذلك كله قراءة متدبرة

واعية بعقول مستبصرة وقلوب سليمة، كيما ينعكس ذلك تصرفاً مخلصاً واعياً، لا يعوزه العلم والبذل في مواجهة الواقع ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠].

obeikandl.com